في قراءة قصص قرى وأحياء القدس

بعد سنواتٍ من العمل الدؤوب والبحث المكثّف بالتنقيب في الكتب التاريخية والتدوينات القديمة وزيارة أهالي كل قرية وحيّ والدراسة التطبيقية للواقع الحالي، أنتجت مؤسّسة الجذور الشعبية المقدسية "قصص أحياء وقرى القدس"، وهي مجموعة شمولية من المقالات التي تمزج بين الكفاءة الأكاديمية والبصيرة الإنسانية الشخصية. يتّضح أمامنا أكثر تاريخ هذه البقعة البارزة والمركّبة حينما نتعلّم أكثر عن أبعادها المختلفة، ما بين المراحل التاريخية التي خاضتها والواقع ما قبل الاستعماري لكلّ منها، ومن ثم التغييرات التي طرأت عليها بعد استعمارها وأوصلتها إلى الواقع الحالي.

يعرّف كل مقال عن إحدى الضواحي أو القرى الواحدة والأربعين ابتداءً من طبيعتها الطبوغرافية والديموغرافية، وعليها تستكشف النظام الحياتي الذي ساد فيها والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة حوض البحر المتوسط التي تمثّل فلسطين؛ وفرة الموارد الطبيعية والاعتماد الاقتصادي على نوعٍ معين من المحصول في كلّ منطقة يتم تصديره إلى دولٍ مجاورة وقصيّة. نتعلّم أيضاً عن العائلات التي تسكن كل منطقة والتعداد السكاني على مرّ السنين والأسباب التي أدّت إلى تزايدها أو تناقصها، خالقةً الاكتظاظ أو النزوح.

تنوّرتُ بمعرفة الأصول اللغوية لأسماء المناطق وعلاقتها بحقبات تاريخية معينة، وعلاقة المنطقة نفسها بأحداث تاريخية ومعتقدات دينية بارزة، بالإضافة إلى المناطق الأثرية والروايات الشعبية المتعلّقة بها مثل المقامات والكنائس والمساجد والأديرة، روايات يعرفها أبناء الأحياء والقرى متعلّقة بتاريخ أرضهم. وتعطي الأبحاث أهمية خاصّة للشخصيات البارزة التي قدّمت العون للمنطقة، من أولياء ومناضلين وثوريين مُعاصرين، كما تضيء على التقاليد التي كان يمارسها أهالي البلدات وشهاداتهم الشخصية عن قصص بطولية ومأساوية وأحياناً فكاهية، وهي قصص تخلّدت في الذاكرة الشعبية لسنين تلت.

عندما يقدَّم لنا مثل هذا البحث حول تاريخ التطوّرات التي أحدثها الوجود والتوسّع الاستعماري والاحتلال في المنطقة، يزداد إدراكنا لكيفية تحول الواقع إلى ما هو عليه الآن ومن أين تأصّل الوضع الحالي. ابتداءً من قصة كل قرية وحيّ في حرب النكبة والمحاولات الأولى لاستعمارها وإخلائها، تبحث هذه الدراسات في المعارك والمواقف البطولية التي تولّاها أهالي كل بلدة في مواجهة العصابات المسلحة دفاعا عن أرضهم، وفي جرائم الحرب غير المنتهية والدور الرئيسي للمقاومة في القضية الفلسطينية منذ بداياتها. تنجح الأبحاث من خلال النهج الكرونولوجي (من ناحية التسلسل الزمني) تجاه القضية بتفسير مراحل التقسيم التي خضعت لها المناطق، ومن ثم الاستهداف والتضييق عن طريق السياسات الصهيونية والتوسّع الاستيطاني

وخصوصًا بعد نكسة عام ١٩٦٧، مما أدى إلى التمدّن وظهور "المخيمات" كما نعرفها اليوم وإلى خسف الاقتصادات المحلية وحرية التحرك وكيف غيّر هذا كله صورة المنطقة وأسلوب حياة سكانها إلى الأبد. تسنّى لي معرفة أسماء وقصص الثوريين والمقاومة المحلية في وجه الهيمنة، من خلال شهادات شخصية تعيد لنا تمثيل الانتصارات العظيمة في إفشال المشاريع الاستيطانية، كما تتيح لنا التعاطف مع الشهداء الذين خسرتهم المقاومة في نضالها.

مع ذلك، فإن هذا البحث لا ينظر من خلال عدسة الماضي فقط، بل يُبيّن الظرف الحالي لكل حيّ وقرية تم فصلها عن بعضها البعض بجدار الضم والتوسّع، والحواجز العسكرية والمستعمرات؛ فإن المشروع الاستيطاني لم يتوقف ولا يزال يزحف بخطواتٍ مستمرة نحو كل ما هو فلسطيني. وضعت الباحثات القضايا الحالية لكل منطقة في محور التركيز بنقل التفاصيل للتضييق الذي يمارسه الاحتلال في محاولة تهجير المقدسيين وإبقاء كل الفلسطينيين الآخرين بعيدين عن القدس، ويتجلّى هذا بتعقيد الطرقات بين القرى والأحياء المتجاورة ونصب الحواجز على مداخلها، بالإضافة إلى وضع خطط مستقبلية لمشاريع استيطانية واسعة النطاق من أجل ربط القدس بباقي الأراضي المحتلة والسيطرة على ما يتبقى. يستشهد البحث أيضا بأحداث وهبّات ليست بعيدة في الماضي، وبعضها إلى حين كتابة البحث نفسه، وكانت النتيجة هي تكديس شمولي للمصادر بهدف وضع أساس للبحث في القضية الفلسطينية وصونها.

كانت تجربتي في المشاركة في هذا المشروع كمترجم من الضفة الغربية ساحرة، فقد تمكنت من رؤية صورة لماضٍ فلسطيني يشبه الفردوس، وهي صورة مفقودة وغالباً ما أنها ضاعت إلى الأبد، وتمكنت من السفر في نواحي تلك المنطقة المقدسة التي تتمركز وسط القضية الإنسانية منذ الأزَل، كما تسنى لي النظر من خلال نافذة صغيرة نحو رؤية للمستقبل المحرر الخالي من الاستعمار. رأيت الطبيعة الريفية التي تشبه قريتي في الضفة الغربية خلف كل تلك البنايات والحواجز والجدران الفانية، واتضحت أمامي فلسطين حقيقية بعيدة عن السياق الممل والمتكرر للمعاناة، وتحولت أسماء ضواحيها التي كنت أسمعها في الأخبار فقط ولم تكن تمثّل لي شيئاً سوى التمدّن والاكتظاظ والانفصال المخيف عن تاريخها الممتد عبر الدهور، إلى عناوين رواية ذات معنى ومغزى، وهي رواية عن تاريخ ساحر وقضية إنسانية من الدرجة الأولى. توسّعت حاستي الجغرافية التي كانت مسيّجة منذ طفولتي كابن لجيل الجدار، فقد كنت أظن أن فلسطين هي فقط بضع مدن في الضفة الغربية والقرى والمخيمات المحيطة بها، وكانت الدول العربية في عالم موازٍ والساحل الفلسطيني أبعد من أوروبا، ناهيك عن باقي العالم الذي لا يستقبل حامل جواز السفر الفلسطيني، ولكن هذا التوسّع لا يكتمل إلا بانتهاء تلك الحدود الواهية. سررتُ وتشرفت بالمساهمة في مشروع بهذه الأهمية، وآمل بأنه سيساعد الأصوات الفلسطينية بالوصول بعيدًا ونشر رسالة الحقّ والعدالة، كما أتمنى بالدرجة الأولى أن يستمتع القارئ بالتعلم عن تاريخ مناطق القدس وأهلها.